صور الصّراع بين الأنا والآخر في رواية ذاكرة الماء لواسيني الأعرج

Pictures of the conflict between the self and the other in Wasini Al-Araj's novel Memory of Water

الدكتورة زهرة خالص[1]*

جامعة عبد الرحمن ميرة –بجاية–zahra.khales@univ-bejaia.dz

تاريخ الاستلام: 2024-05-10 تاريخ القبول: 2024-05-16 تاريخ النشر:2024-06-01

الملخص بالعربية:

تتمركز خاصية ثنائية الأنا /الآخر في عبور الحدود وتتخذ هذه الثنائية أشكالا عديدة، منها: الأنا/الهو، الشمال/الغرب، الحاكم/المحكوم، الائتلاف/الاختلاف...، وتغدو هذه الثنائيات وغيرها مبثوثة في ثنايا الثقافة الإنسانية، لتوجهات دينية، وتاريخية، وإيديولوجية، وجغرافية فيحل الأنا رمزا للوطنية المسحوقة والمقاومة، في مقابل الآخر الذي هو رمز التعدي والهيمنة السياسية والثقافية. هذا الموقف اصطنعته الأنا عن الآخر في مخيالها استنادا إلى تصورات وردّات فعل من الطرفين المتناقضين.

تكبّدت الرواية الجزائرية هموم الأنا/الآخر منذ البواكير، ورسم الصراع بين هذين الطرفين الجزء الأكبر من ملامحها، ممتثلة لحكم التاريخ الذي فرض عليها استعمارا مديدا، امتدت آثاره حتى بعد انسحابه.

الكلمات المفتاحية: الأنا والآخر، الصراع، القهر، الإيديولوجية، السياسة.

Abstract

The duality of the ego/other is centered on crossing borders, and this dualism takes many forms, including: ego/id, north/west, ruler/ruled,

* المؤلف المرسل: الدكتورة زهرة خالص

coalition/difference..., and these and other dualities become embedded in the folds of human culture, for religious and historical orientations. , ideologically, and geographically, so that the ego is a symbol of crushed patriotism and resistance, in contrast to the other, which is a symbol of transgression and political and cultural domination. This position was created by the ego regarding the other in its imagination based on the perceptions and reactions of the two contradictory parties.
The Algerian novel has suffered from the concerns of the self/other since its early days, and the conflict between these two parties has shaped the largest part of its features, complying with the rule of history that imposed on it a long-term colonization, the effects of which extended even after its withdrawal.

Keywords: self and other, conflict, oppression, ideology, politics.

ملخص الرواية:

جسدت رواية «**ذاكرة الماء**» للروائي الجزائري "**واسيني الأعرج**" والواقعة في 388 صفحة فترة هامة من فترات تاريخ الجزائر، وهي التي اصطلح عليها بتسمية العشرية السوداء أو ما عرف بعشرية الدم. إنّها رواية أزمة تحكي كيف تتحول الحياة إلى موت والأمل إلى يأس، تحكي يومًا واحدًا من حياة أستاذ جامعي بالعاصمة في جوّ يملؤه الرعب ويترقبه الموت في كل لحظة، بعد أن طاله التهديد على أيادي الإرهاب، راح يختزل مواعيده في جدول زمني محدود بالساعة والدقيقة، لذلك جاءت فصول هذه الرواية وفق هذا الجدول تقريبا، حيث تبدأ الرواية من الزمن: 04H-00M وتنتهي في: 17H-58MNكعنوان لآخر فصل فيها، مشحونة بصور الهلع والقتل والاستسلام لفعل التذكر المنهك.

"واسيني الأعرج" أنموذج للمثقف الجزائري، هو البطل في الرواية والسارد كذلك لأحداثها، رجل على حافة الجنون عايش زمن المحنة، يسرد لنا يومياته بقلق وخوف، إذ جعلنا نشاركه معاناته وتجربته القاسية في مقاومته للموت وذلك رفقة عائلته التي سرعان ما تفكّكت جراء الوضع المزري للبلاد، مما جعله يعاني جرح وطنه وغياب زوجته (مريم)

التي سافرت مع ابنهما (ياسين) إلى فرنسا، بينما بقي هو يعيش في أرض الوطن مع ابنته (ريما) وذلك في بيت صديقة العائلة (فاطمة)، لا صديق له إلا البحر والذاكرة، كان يهرب من الموت، لكنه فجأة يكتشف أن الموت وصل إلى عتبة البيت ولا سبيل للنّجاة من العيون المتربصة به، مما جعله يتساءل إن كان سيعيش أم سوف يقتل؟ وهل سيمهله قاتله وقتا حتى يملأ عينيه من ابنته؟

وسط هذا الخوف والفزع، روى لنا بطل هذه الرواية (الأستاذ الجامعي) تفاصيل حياته وتفاصيل من حوله في زمن الدم والإرهاب الذي كان يحسب خطوات فئة معينة من الشعب، هي نخبة المثقفين، في هذا الجوّ عاش هذا الرجل مع قصاصاته التي تسحب لنا خيوط ذاكرته واحدًا تلو الآخر، لكن عودته للماضي واستحضار ما فيه لم يُزل عنه الفزع، حيث وصل به الأمر إلى الاستيقاظ في ساعات متأخرة من الليل لتفقد الباب والنوافذ، ضف إلى ذلك تخيله لخطوات متعاقبة تتبعه كلما صعد سلم العمارة، إذ كان يتهيأ له أنّه سيذبح في أي لحظة، وأن القتلة المتربصون لن يحلّوا عنه، فهذا ما جعله يحمل سلاحًا (قنبلة مسيلة للدموع) للدفاع عن نفسه، إذ استطاع النّجاة من الموت لكنه فقد الكثير من أصدقاءه المثقفين الذين كانوا ضحية من ضحايا الإرهاب في زمن المحنة الذي جعل من القتلة سادة الوطن.

–تمهيد:

الروائي واسيني الأعرج لم يطرح سؤال الأنا /الآخر كتيمة سلبية ثابتة، تفرض هيمنتها على الخطاب السردي في رواية "ذاكرة الماء" انطلاقا من رؤية أحادية فرضها واقع التسعينات بل غذّاه بسؤال أكثر إيجابية، هو سؤال الوجود والحياة ، وكيف يتحقق في ظل الواقع الاستثنائي الذي شهدته الجزائر في فترة الأزمة، مما يقودنا حتما إلى القول

بانشغال الوظيفة الفنية، التي قصد بها الروائي تقريب الواقع وتشخيصه بصورة جمالية، بعيدا عن الالتقاط الحرفي لتفاصيله ، مما يوضح خصوصية رؤية الروائي الموجهة نحو مساءلة الذات والمجتمع ،واستنطاق التاريخ ضمن التحولات السياسية التي شكلت تربة خصبة لها مما جعل المتن الروائي مسرحا للصراع والمواجهة بين ثنائيتي الأنا/الآخر بما يبين نسبة الحقيقة بعيدا عن ثبات الفكرة وأحاديتها . وهذا يبين تفاعل الروائي مع ذاته ومجتمعه وعصره، بوصفه مبدعا ومناضلا لترسيخ قيم البحث عن أخرى غيّبها تداعي المجتمع وسقوطه في وحل الصراع السياسي الدمويّ ، ولعل أهمها قيمة الأنا والآخر التي نحن بصدد إجلاء تمظهراتها في رواية "ذاكرة الماء"، في إطار دال الفهم الذي يقتضي بالعودة إلى النص ولا شيء غيره.

– المرأة المقهورة تحت سطوة الرجل القاهر:

تعددت أسباب ومستويات القهر في الرواية، منها ما يعود إلى منظومة العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية القاسية التي تضع المرأة في حلقة القهر، مما يقودها إلى الانفجار والخروج عن صمتها، إذ تقول الطبيبة النفسانية (إيماش): «تعبت يا خويا بزاف عليّ، الجامعة. البيت. البنت. وزد على ذلك الشتائم وأحيانا الضرب. في هذه البلاد المرأة تظل امرأة ولو تطلع للسماء، وما دامت وضعية الدين ما تزال غامضة. صار الآن، مادام هو الرجل، يقسم براس يماه أنّه سيخرجنا من البيت الذي نسكنه لأنّه ملكه، بل باعه ونحن فيه»[2]، فالمرأة في زمن العشرية السوداء لم تسلم من شيء ولم تفلح في حياتها، مادام كل العيون موجهة إليها فهي تلّقت اللّوم والشتائم، لكونها تعمل وتخرج إلى الشارع كما عانت كذلك من قمع الرجل الذي كان يمارس عليها العنف المادي والمعنوي فأهم ما عانت منه "إيماش" هو ظلم الرجل /الزوج واستفزاز الرجل / الإدارة، فزوجها فرض عليها المكوث في

[2]– واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، ط1، منشورات الفضاء الحرّ، الجزائر، 2001م ص347.

البيت والاعتناء بالبنت، والإداري أراد إخراجها من البيت الذي تسكنه وقد استلمته من زميل مشرقي، فما تعاني منه النّساء في الجزائر هو «عدم وجود سلطة لهن فالحل والربط بيد الرجل وهذا ما يجعلها تتمنى قيام ثورة نسائية ضد هؤلاء الذين يطاردون النساء ويمارسون عليهن سلطة»[3]، ومن أسباب ومظاهر القهر في الرواية ما يعود إلى الأزمة الوطنية وما لاقته المرأة الجزائرية في تلك العشرية من اغتصابات كشكل من أشكال العنف وهذا ما صورته الرواية عبر شخصية (نوارة) التي كانت صديقة (يوسف)، والتي تعرضت لهذا القهر الشنيع، ويأتي هذا المقطع ليوضح ذلك:

- «...سألني، بعد أن نزع القطن من فمي.
- هل أنت متزوجة.
- كدت أقول له عفويا لا. ولكني هززت رأسي على أساس أني لم أسمع جيدًا. ثم صرخ وأخرج عينيه الحمراوين.
- راني نقول لربك واش متزوجة وإلا لا.
- هززت رأسي أن نعم.
- ...ثم بطحني أرضا... لم أقاوم. لم أشعر بشيء. كان لحمي ميتا»[4].

هكذا كانت المرأة تعاني في صمت أمام وحشية الرجل عديم الإحساس والأخلاق، ففي ذلك الزمن عانى هذا المخلوق الضعيف من كل أنواع القهر في مجتمع منح فيه الريادة للذكر وعلا من شأنه ليعيث بالأنثى منكرًا، حيث ترى المرأة «أن القانون المدني لم يمنحها

[3]- مفقودة صالح، المرأة في الرواية الجزائرية، ط2، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص90.

[4]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، ص332.

كامل حقها الإنساني الذي يساويها بالرجل أمام المجتمع وأمام القضاء»[5]، بل أعطى الأولوية للرجل في كل الأمور ليظهر بذلك الكل متحالف ضدها ومتآمر عليها.

كان ينظر إلى المرأة الجزائرية إبان العشرية السوداء على أنّها جسد لا شيء أكثر من ذلك، وصورت لنا الرواية علاقتها بالرجل وموقفه منها تبعًا لتكوينه، حيث نظر إليها أحيانا عبر رغباته فاختزلها في جسدها وأحيانا أخرى وجد فيها أداة للإنجاب وظيفتها الإنتاج، ففي ذلك الوقت تجاهلوا بأنّ «للمرأة كيانها ودورها، وليست المرأة أداة متعة ومعملا للتفريخ والمحافظة على النوع البشري فقط»[6]، بينما أراد المثقف فيها غير هذا كله فنلمحه يحاول الدفاع عنها ويهتم بها ككيان إنساني وكفرد له حقوق وعليه واجبات ولا من داع للتفريق بينها وبين الرجل، لأنّه «هناك وبكل تأكيد رجالا نيّرين يعملون لصالح تحرير النساء»[7]، لكن هذه الفئة قليلة جدا مقارنة بمن مارسوا القهر على المرأة، و أوصلوها إلى درجة أين كرهت ذاتها ولامت قدرها لكونها أنثى، وفي هذا تقول (نادية) في الرواية: «والله أحيانا ألعن هذا الجسد، وألعن كوني امرأة، وأحيانا أقول، إذا كان الرجال هكذا، بهذه السخافة، الأفضل أن أظل امرأة»[8]؛ يعمق هذا المقطع الوضعية المتأزمة التي عاشتها (نادية) بإكراه الجسد على ممارسة ما لا طاقة لها به، هذا الإكراه المحمل هو ما ولد الإحباط الذي يكشف بدوره عن الجو الداخلي للنفسية المحطمة التي أصبح علاجها من المستحيل، لأنّه أصعب داء هو داء القلب ومواجع النفس البريئة المستضعفة، فهذا ما كانت تعاني منه المرأة من طرف الرجل القاهر ذو الملامح القاسية المفرغة من كل وازع ديني وإنساني والتي لا تستوفي الكلمات التعبير عنها.

-جدلية المثقف والإيديولوجية السياسية:

[5]- محمد معتصم، المرأة والسرد، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2004م، ص10.

[6]- محمد معتصم، المرأة والسرد، ص09.

[7]- مفقودة صالح، المرأة في الرواية الجزائرية، ص79.

[8]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، ص306.

إن رواية "ذاكرة الماء" تمس بشكل مباشر العلاقة بين السلطة السياسية والمثقف في حقبة تاريخية حددها الروائي من «1993م إلى 1995م»[9]، فالرواية عالجت فترة حاسمة من تاريخ الجزائر، وأزمة تاريخية عن النظام السياسي المتآكل من الداخل، تحكمه مجموعة من القيم المضطربة، مصادرة الحريات الفردية، الاعتقالات والاغتيالات.

تتجلى معارضة السلطة لمشاريع ومواقف المثقف في قيامها بقمع حريته، بسجنه ومحاكمته لنشره لنصوص أو كتابته لمقالات تفضحها وتكشف خطط جهاز الدولة، التي قطعت أنفاس النخبة حتى صارت تدقق النظر فيما تكتبه من كلمات خوفا من رد فعل النظام «الرقابة كانت في السابق تسحقنا بقراءاتها القاتلة وتقاريرها المطعمة بالكلمات المستهلكة...اليوم تغيرت الأدوات، لا رقابة على النّص، نراقب أنفسنا ذاتيا»[10]، فالراوي يرى هنا أن ما تولد من صراع بين المثقف والمؤسسة الحكومية كان سببه كتابة المثقف لنصوص يعارض فيها السياسة وخطاباتها المزيفة، فهو يظهر الحقيقة للعامة بطريقة مباشرة وهذا ما فعلته شخصية "أحمد" في الرواية، حيث أنّه «لا يدري صار رقيبا رغم شجاعته التي سببت له في الكثير من الأحيان الوقوف أمام المحاكم بسبب نشره لنصوص كانت ممنوعة»[11]، فغاية المثقف كانت إبراز ما هو خفي وراء ستار السلطة الحاكمة.

جسدت المدونة أهم صور السلطة التي قامت بقمع حرية الرأي والتعبير، وهنا يظهر صراعها مع المثقف لأنّها على علم أنّ ما ينتجه يشكل خطرًا عليها، لذلك نجده يعارضها لكونّها المسؤول الأول عما يحدث، فاختلافه وصراعه معها أمر بديهي، فهي أغلقت كل الأبواب في وجهه، وجعلت منه إنسانا بائسا، مثلما حدث لـ "فاطمة" التي

[9]- المصدر نفسه ،ص08.

[10]- المصدر نفسه، ص285.

[11]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، ص285-286.

تفصح في الرواية عن تذمرها، فتقول: «أنا يائسة تماما من إرساء ديمقراطية في هذه البلاد بدون تكسير هذه المافيا...من الجنون أن ينقبلوا من قتلة وسراق وحرامية إلى ديمقراطيين»[12]، فهذه المافيا المالية السياسية مصلحتها التخلص من كل من يملك أسرارها أو القادرين على فضحها، وليس البحث عن طرق لإرساء العدل والديمقراطية.

إن العلاقة بين المثقف والسلطة وصلت إلى طريق مسدود، إذ انقطعت لغة الخطاب بينهما من ناحية وإبعاده عن مصلحة التأثير الاجتماعي من ناحية أخرى، لكن الأزمة هنا هي أن المثقف رضي بالدور المرسوم له وما يدل عل ذلك في الرواية هو المقطع التالي الوارد على لسان "عبد ربّه": «سكوتكم أنتم المثقفون هو الذي أدى بالبلاد إلى الهلاك»[13]، فلو لا تصدي السلطة لهذه الفئة لما عرفت الجزائر كل ذلك الدّمار، ولما غيروا الواقع بقدر ما ساهموا في تثبيت دعائمه وإقامة أوتاده، وإلا فالنفي والسجن والاغتراب هو البديل من قبل المجتمع والسلطة المسيطرة عليه والتي هي جريمة على ذاتها، لسبب واحد هو رغبتها في البقاء والخلود أكثر. إنّ الحكم على العلاقة بين المثقف والسياسي أمر صعب للغاية، لأنّ هذه العلاقة معقدة لا ينبغي النظر إليها من زاوية واحدة أو من خلال موقف واحد، يتعلق بأمر جزئي أو فترة زمنية معينة، كما أنها علاقة جدلية تتسم بالمدّ والجزر، لأنّ كلاهما يعمل على توجيه المجتمع والعامة حاضرًا ومستقبلا، كما على المثقفين أن يبرزوا الحقيقة ويبحثوا عنها حتى ولو كانوا معارضين للسلطة أو رافضين لمبدئها «لابد أن يكونوا أفراد يتصفون بالكمال ويتمتعون بقوة الشخصية وقبل هذا كله عليهم أن يكونوا دائما معارضين للوضع الراهن في زمانهم وبصورة دائمة»[14]،

---

[12]- المصدر نفسه، ص222.

[13]- المصدر نفسه، ، ص69.

[14]- إدوارد سعيد، الثقافة والمقاومة، حوار مع دايفيد بارسا ميان، تر: علاء الدين أبو زينة، ط1، دار الآداب، لبنان، 2006م، ص38.

فإذا كان رجال السلطة السياسية هم من يصنعون نظام الحكم، فإن رجال الثقافة هم من ينظفون كل خراب وفساد ينتج عن النظام، لكونهم من أصحاب الرأي العام ومن طبقة الشعب، فالسلطة لها رجالها من السياسة كما للشعوب رجالهم من المثقفين.

-جدلية المثقف والجماعات الإرهابية:

يعيش المثقف الجزائري أزمة حقيقية تجسدت خاصة في الحرية، فقد كانت تتلقفه الأوضاع الراهنة والحياة اليومية المزرية التي تحجب عنه شعلة النور وبريق الأمل، كما تأخذ بناصيته العصابات السياسية والجماعات المسلحة التي تمنع عنه التفكير والإبداع وتحدّ من عملية نشره وترويجه لأفكاره ومواقفه، فيُعزَل عن الساحة الثقافية ويتراجع دوره، لأنّه «تتطور الثقافة ويتطور الإنتاج بقدر ما تتطور علاقات الجماعة الداخلية ووحدتها أي بقدر ما يتيح توازن المصالح الاجتماعية المتعارضة استقرار نسبيا يسمح بتحسين طرق الإرضاء العام للحاجات وتهذيبها»[15]، فهذا التوازن للمصالح اختل في زمن الأزمة مما أدى بعجلة الثقافة إلى الركود، لأنّه هناك حواجز تمنع المثقفين من الكلام أو التفكير في مثل هذه المواضيع، وبهذه النظرة الرجعية المتخلفة يجد المثقف نفسه في صراع مع النظام الذي يمنعه من كشف المستور ثم ينتقل الوضع إلى الافتراسية الشرسة والقمعية، لتستعيد البلاد تقاليد التوحش وقوانين الغابة، وتتلاشى بذلك قيم الحضارة والإنسانية، لتغير معركة المثقف اتجاهها صوب الجماعات الإسلامية المسلحة التي كشّرت عن أنيابها، أظهرت وحشيتها وأنزلت خوفا وفزعًا على البلاد ومن فيها.

لا يختلف اثنان حول العلاقة الصراعية التي تجمع بين المثقف والجماعات الارهابية وذلك منذ الأزل، فهي علاقة يحكمها الكثير من الالتباس حتى أطلق عليها البعض صراع السيف والقلم، وبما أن دور المثقف ليس مثل دور السلطة، فهذا يولد نوعًا

[15]- برهان غليون، اغتيال العقل، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006م، ص89-90.

من الصراع والرفض، حيث أن الأنا الذي هو المثقف يتمثل دوره في عملية بناء الأفكار ثم نقدها بكل حرية بعيدًا عن القيد، أما الآخر فيتمثل في السلطة بصفة عامة أي مهما كانت دينية أو سياسية أو اجتماعية...إلخ فهي التي تأمر وتنهى ومنه تنتج ثقافة على حسب رغبتها ولا تولي أي اهتمام بمن تحتها لكونها هي فوق الجميع.

لقد وجد المثقف الجزائري نفسه في صدام ومواجهة دائمة مع الجماعات الإرهابية، وكان رافضا لتّطرفها الديني، إذ كثيرا ما يقف في الجانب المعادي والمتناقض لتوجهاته ومن هذا المنطلق تولد نوع من الصراع بينهما، حيث كان لزامًا على المثقف أن لا يركع أو يتحالف أو يتواطىء مع أي جهاز اسمه السلطة وذلك مهما كانت إيديولوجيتها سواء سياسية أو دينية، حيث يظهر لنا في الرواية أن بطلها يلقي بكلمات مباشرة يستهدف من خلالها تلك الجماعات التي لم تخلق سوى الخراب، فيقول: «لابد أن يكون هناك انكشارية يرضيهم هذا الخراب الكلي، لقد وضعوا بلادًا بكاملها بين أيديهم، ثم خربوها من الداخل كالسوسة وخربوا الناس بنفس الطريقة»[16]؛ فمن خلال هذا القول نلمح نوعًا من الجرأة والبوح بالصوت العالي من طرف المثقف، وهذا نتيجة لقهره وقمعه ويأسه مما تراه عيناه وتشهده الأيام التي عاشها.

يظهر لنا من خلال الرواية بأنّ البطل ينحاز لجهة استبعاد الدين تماما عن الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، ليس لأن من يدّعيه يهدده بالقتل والمطاردة شيوعيا كان أو فرانكفونيا أو خارقا للملة خارجا عن الدين، ولكن لقناعة تامة بأن الصواب يكون بمثل هذا القرار، إذ يقول: «الرقابة كانت في السابق تسحقنا بقراءاتها القاتلة وتقاريرها المطعمة بالكلمات المستهلكة، شيوعي خطير، فرانكفوني ضد أصالته

[16]– واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، ص241.

ودينه، بعثي لا وطنية لنصه، رأسمالي، اشتراكي، سياسي، ايديولوجي...»[17]، فهو من وراء مواقفه يتطلع إلى القيم الإنسانية وإلى تجسيد الحرّية الشخصية كما يدعوا إلى تحييد الدين عن الدنيا لأنّه يرى بأن أزمة الجزائر جاءت نتيجة الخلط بين الدين والأمور الدنيوية، فالفكر الديني عندما يزيف ويعتمد عليه في الحكم يؤدي حتما إلى تخريب ودمار البلاد، حيث «أجبرت سيادة الدين كإيديولوجيا سيطرة الجماعات المعارضة من المثقفين لسياسات النظام على الحوار حول قيمة تبني النموذج الديني لاحتواء ومعارضة الإيديولوجيا السائدة»[18]، فالمثقف يهدف أساسا لإبداع فكر والتعبير عنه وتنميته، لكن هناك ارتباطات أخرى تستهدفه كإرضاء جهة ما أو تبعيته لإيديولوجيا معينة أو وجود سلطة ما تهاجم ذاته المبدعة بكبت صوته ومصادرة حريته وحقه في العيش، وهذا كله لأنّه أبدى موقف الرفض كرد فعل تجاه الباطل الذي عاثت به الجماعات المسلحة.

يواجه المثقف الجماعات الإرهابية التي تتستر وراء الخطاب الديني، والتي مارست عليه مختلف أنواع العنف والقهر، عانى كثيرا من عنف الجماعات الإرهابية من جهة، ومن قمع السلطة من جهة أخرى فكان طريدًا من كل الأطراف المتناحرة، إذ جعلوه يعيش الخوف والفزع بكل أبعاده، فالمثقف الجزائري لم يكن متصالح مع النظام بطبيعته، وفي نفس الوقت لم يجد من يحميه من غضب المتطرفين ووحشيتهم، فكان فريسة لهم، وليس لديه أي وسيلة للقيام بثورة ثقافية حقيقية تخرجه من الأذى الذي يحيط به وتخلصه من العيون الكثيرة التي تراقب عدد خطواته، مما يجعل الراوي يقول: «هي قساوات الحياة والخوف بل والذعر من قادم لا نعرف ملامحه»[19]، لأن الخطر كان يحوم بالشخصية

[17]- المصدر نفسه، ، ص285.

[18]- مصطفى مرتضى، المثقف والسلطة (رؤى فكرية)، ص236.

[19]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء، ص195.

المثقفة من كل الجوانب، فهو كان يعيش خوفا رهيبًا سببه الجماعة المتطرفة التي جعلت كل من يخالف تعاليمها يذوق مرارة الحياة.

من خلال ما قلناه سابقا يتضح لنا أنّ الآخر الذي كان قاسيا في قمع الأنا المثقف هي الجماعات الإرهابية فمعها اشتّد الصراع وامتدت المعركة، فلو قارناها بسلطة النظام السياسي وإيديولوجيته لوجدناها أكثر ممارسة للعنف لأنّها اتخذت سبيل الاغتيال بأبشع الطرق من دون أي رحمة أو شفقة ووجدت ظالتها في تصفية الحسابات وزرع الخوف في نفوس الشعب.

خاتمة:

نخلص أخيرا إلى أن الرؤية المتناقضة التي تطرحها رواية "ذاكرة الماء" مركبة، ومتعددة الجوانب: ثقافية، سياسية، اجتماعية كما أنها تجمع بين الادراك الذاتي والادراك الموضوعي للمثقف تجاه الواقع الجزائري في التسعينات. وهي رؤية شائكة يطرحها واقع استثنائي، يطفح بثنائيات الأنا والآخر من خلال: المثقف/السياسة، المثقف/الإرهاب، المرأة /الرجل.

إذا سلّمنا جدلية الموت والحياة هي الثنائية الطاغية في تشكيل مضمون النص الروائي، فإن هذه الأخيرة هي دال لنسق لغوي، ولايمكننا فهم مضمون النص الأدبي أو بنيته الدالة بمعزل عن البنى الفكرية الموجودة خارجه والتي ساهمت في إنتاجه ، لأن هذه البنى الخارجية تشكل البنية التكوينية للعمل الأدبي، ولا يمكننا إدراك وظيفة هذا الأخير إلا ضمن شرطه الاجتماعي ، والتاريخي، والاقتصادي، والثقافي، وهذا ما يسمى ب السياقات خارج نصية .

إن المثقف الجزائري الذي ورد في رواية "ذاكرة الماء" يحمل كلا من السلطة السياسة والجماعات الإرهابية مسؤولية ما آل إليه الوطن، إذ ظهر صراع بين المثقف وهاتين السلطتين كما ظهر صراع آخر دار بين تلك السلطتين في حد ذاتها وذلك من أجل الوصول إلى الحكم، فالصراع الأول كان من أجل الإصلاح والتغيير لأن دور

المثقف يقوم على ضمان المصلحة العامة، أما الصراع الثاني كان من أجل المصالح التي كانت مصالح خاصة تدفع بالبلاد إلى الهلاك بها وبمن فيها ومن عانى أكثر في هذا المسلسل العنيف هو المثقف بالدرجة الأولى، لأنّه كان يسعى لكشف خفايا كلا الطرفين ليجد نفسه واقع بين السندان والمطرقة، وانعكس ذلك على نفسيته كشعوره باليأس، والانكسار والخذلان، فالمعاناة الفردية للمثقف جاءت على درجة لا تقل أهمية على معاناة وطن بكامله.